الكتب والكتّاب والقرّاء

في جمهوريات روسيا

ما تنشرهُ المطابع وما يطالعهُ القرّاء

هل تصدق ايها القارىء الكريم انه طبع في روسيا في سنة ١٩٣٤ ترجمة كل مؤلفات الخلامة داروين فبيع منها في خلال سنة واحدة عشرة آلاف نسخة وان خمسة آلاف نسخة من منطق هيجل نفدت في خمسة ايام . وان مجموع النسخ التي بيعت في سنة ١٩٣٢ في جمهورية روسيا وحدها من الكتب والرسائل الجديدة بلغ ستمائة مليون نسخة ؟ اقرأ اذن ما يقوله اللورد باسفيلد (سدني وب) وهو من اعرض الكتاب على توخي الحقيقة وايرادها

كان لنين يرى ان الكتب والرسائل والمجلات ، ناحية خطيرة الشأن ، من بيئة الانسان الاجتماعية . فيجب ان لا تترك للصدفة تتصرّف فيها ، ولا لشركات المتموّلين يستغلّونها لفائدتهم الخاصة ، ويضلّون بما ينشرونهُ من المؤلفات اذهان الشعوب السوفيتية . لذلك جعل الحكومة السوفيتية المشرفة العليا على كل ما يطبع وينشر في روسيا من الكتب والرسائل وجعل دور النشر ملكاً للامة كغيرها من المرافق العامة ، يضاف ما تجنيه من الربح في تجارتها الى ريع الدولة

وقد خطت الحكومة في هذه الناحية خطوات الجبارة ، في خلال ١٣ سنة من يوم انشئت دار النشر الخاصة بالدولة في موسكو (وتعرف بالاوجيس Ogis) سنة ١٩١٩ الى آخر السنة الماضية . ففي سنة ١٩١٤ كان مجموع النسخ التي تباع في روسيا من الكتب والرسائل الجديدة لا يزيد على ١٣٠ مليون نسخة . وظلّ التقدم بطيئاً خلال السنوات العشر الاولى بعد الانقلاب (١٩١٧ – ١٩٢٨) ولكنه زاد زيادة كبيرة جداً في خلال السنوات الاربع الاخيرة ففي سنة ١٩٣٢ بيع من هذه النسخ ثلاثة اضعاف ما بيع سنة ١٩٢٨ ويقدر ما ينتظر بيعه هذه السنة بثمانية اضعاف ما بيع سنة ١٩٢٨ وقد ذكر اللورد باسفيلد في مقالة له في مجلة التاريخ الجاري (مارس ١٩٣٣ ص ٧٩٧) ان دور الطبع والنشر في جمهورية روسيا (دون غيرها من الجمهوريات السوفيتية كاوكرانيا ، التي يتألف منها اتحاد الجمهوريات السوفيتية) اخرجت وباعت في سنة ١٩٣٢ اكثر من ٦٠٠ مليون نسخة من الكتب والرسائل الجديدة البالغ عددها نحو ٤٠ الفاً وان متوسط عدد الملازم (الملزمة ١٦ صفحة) في كل نسخة منها يبلغ خمس ملازم

اي ان مجموع الصفحات التي اشتملت عليها الكتب والرسائل الجديدة بلغ ٤٨٠٠٠٠٠٠٠٠٠ صفحة . وان مجموع الكتب والرسائل الجديدة التي نشرت في اتحاد الجمهوريات السوفيتية بلغ ٥٠ الفاً وعدد ما بيع منها من النسخ ٩٠ مليون . يضاف الى ذلك ان في هذا الاتحاد نحو ستة آلاف جريدة ومجلة مجموع النسخ التي توزع منها (يوميًّا او اسبوعيًّا او شهريًّا) اربعين مليون نسخة . فحركة النشر في اتحاد الجمهوريات السوفيتية تعدل بحسب تقدير الورد باسفيلد ما يقابلها في الولايات المتحدة الاميركية وبريطانيا والمانيا معاً

والحكومة الروسية تجني من عملها هذا ربحاً جزيلاً . فقد بلغ دخل دار النشر في موسكو (اوجيس) سنة ١٩٣٢ اكثر من ٢٥٠ مليون روبل (٢٥ مليون جنيه ذهب) ولكن هذا المبلغ يشمل ما بيع في فروع الدار من الورق وادوات الكتابة ومطبوعات الدور الاخرى كذلك. وأما ثمن ما بيع من مطبوعات الدار نفسها فنحو نصف ذلك . وبلغ الربح الصافي الذي جنته الحكومة الروسية من هذه الدار في السنة الماضية نحو ثلاثة ملايين جنيه

على ان سعة انتشار الكتب، ووفرة ربح الحكومة، لا يهمّاننا في هذا المقام ، بقدر ما تهمّنا معرفة الموضوعات التي تعالجها هذه الكتب، وكيف يعامل كتّابها، ووسائل طبعها ونشرها ومراقبتها

فاذا صرفنا النظر عن الصحف الدورية ، وجدنا ان الكتب والرسائل التي تخرجها مطابع السوفيت تتباين من كرّاس صغير ، لا يزيد على اربع صفحات ، ويحتوي على خطبة للرفيق ستالين (يطبع من كراس كهذا عادة نحو مليوني نسخة) الى ترجمة كاملة لكل مؤلفات دارون التي طبعت ونشرت سنة ١٩٣١ في ثمانية مجلدات. وقد طبع منها ١٠ آلاف نسخة كاملة فنفدت كلها قبل مايو سنة ١٩٣٢ . ثم اعيد طبعها في عشرة مجلدات وعشرة آلاف نسخة ولا يبعد ان تنفد قريباً. ولا ريب في ان الجانب الاكبر من المطبوعات الجديدة مؤلف من رسائل صغيرة ، ليس لها رونق خاص . ولكنك تجد كذلك مجلدات ضخمة مطبوعة على ورق من اجود اصناف الورق تحتوي على صور ملوّنة لاشهر الآثار المعلقة في دور السوفيت الفنية ؛ بل ان كثيراً من المطبوعات في المقام الاول من ناحية الفن والصناعة . والكتب تطبع في نحو خمسين لغة مختلفة من اللغات المستعملة في طول الاتحاد الروسي وعرضه من البلطا على شواطىء المحيط المتجمد الشمالي الى مضيق بيرنغ الفاصل بين آسيا واميركا الشمالية

ونجد الى جنب مؤلفات الكتّاب الروسيين والاوقرانيين ، مؤلفات الالمان والانكليز والفرنسيين والايطاليين والاسبان والسويديين والتشكيين ، ومؤلفات الاجانب في الغالب علمية او صناعية . ولا تخلو من روايات وشعر وتاريخ . اما المطبوعات الموسيقية فكثيرة جدًّا ولا تقتصر على مؤلفات امة دون اخرى

وليس بالامر اليسير معرفة مقام المؤلفات الادبية معرفة مضبوطة ولكنها اذا قيست بسائر

الغربية والجنوبية فقد كانتا مشرفتين على النيل ثم ترى القتال يستأنف بين الطرفين من آن الى آن بغير جدوى للعرب لوفرة معدات الحرب عند الروم وقلتها عند اعدائهم، ودامت الحال على هذا المنوال نحو ثمانية شهور ساور القلق امير المؤمنين (الفاروق) في خلالها على جيوش المسلمين التي رأى قوادها ان الحيلة اجدى من القوة فعمدوا اليها ، وكان الامير « الزبير بن العوام » رئيس اركان حرب عمرو هو المنفذ لها . فانه خدع الحامية وغافلها وتركها في احدى الليالي تنام هادئة مطمئنة الى ان ادبر النصف الأول من الليل ثم أتى بسلم صعد عليه حتى بلغ قمة سور الحصن ولحق به البعض من اتباعه ومن القمة انحدروا الى احد ابواب الحصن [1] فقتلوا حراسه ثم فتحوه فتدفقت منه بقية الجيش وتغلغلت في داخل الحصن واعملت سيوفها في رقاب الحامية التي اخذت على غرة فتسابق رجالها الى الفرار ووطد العرب اقدامهم فلم تكن الا هنيهة حتى علا التكبير والتهليل ونادى بشير العرب (نصر من الله وفتح قريب)

لم يكن المقوقس حاضراً تلك المناجأة التي اعقبتها الهزيمة الساحقة . بل كان قبلها قد نقل مركزه الى جزيرة الروضة هرباً من تلك الكارثة التي كان قد توقع حدوثها فاستعد من قبل لها فركب سفينة اقلته من داخل الحصن الى الجزيرة مجتازة ذلك الباب التاريخي المعروف بالباب الحديد والذي تعلو برجيه الكنيسة المعلقة حالاً [2]

***

ودارت مناظرة ظريفة بين المقوقس وبين رئيس الوفد العربي الذي ارسله عمرو بن العاص الى الاول اجابة لطلبه للمفاوضة في الصلح وذلك قبل سقوط الحصن وقد دل اختيار اعضاء الوفد ورئيسه على علو كعب في السياسة من جانب عمرو بقدر ما دلت لهجة « عبادة بن الصامت » رئيس الوفد في مخاطبة المقوقس على مبلغ علو النفس والاعتداد بها

ركب عبادة — وكان طوله عشرة اشبار — السفن الى المقوقس ودخل عليه مع اصحابه فهابه المقوقس لسواده فقال « تحدثوا عني هذا الأسود وقدموا غيره يكلمني » فقالوا « ان هذا

---

(١) عدد (ابن دقاق) و (المقريزي) وغيرهما من المؤرخين على اختلاف بينهم ابواب الحصن وترر بعضهم ان العرب دخلوا الحصن من بابه الجنوبي الذي هرب المقوقس منه والذي تقوم الآن على برجيه الكنيسة المعلقة وذلك رغماً عن ان موقعه من النيل يحول دون الدخول منه والمرجح المعقول جداً ان العرب دخلوا الحصن من باب رئيسي مفتوح في جدار مر الشرقي كشفت آثاره لجنة حفظ الآثار العربية سنة ١٩٢٥ م وهذا الباب لم يعنه احد من المؤرخين من ابواب الحصن المعروفة مع انهم ذكروا امثاله فهل لنا ان نستنتج من هذا ان ابن دقاق والمقريزي كانا يعتمدان في تدوين مؤلفاتهما على النقل دون المعاينة. هذا ما تدل قرائن الحال عليه لان هذا الباب الشرقي الضخم كان كغيره من ابواب الحصن ظاهراً للعيان في عهد المقريزي

(٢) هذا ما اجمع عليه المؤرخون غير ان المرجح ان خروج المقوقس كان من الباب الغربي للحصن الباقي هيكل برجه الجنوبي الى الآن . اما برجه الشمالي فتعلوه الآن كنيسة مر جرجس

الاسود افضلنا رأياً وعلماً وهو سيدنا وخيرنا والمقدَّم علينا نرجع جميعاً الى رأيه وقوله وقد رأسه الامير علينا وامرنا ان لانخالف رأيه وقوله ». فقال المقوقس لعبادة «تقدم يا اسود كلبي برفق » فتقدَّم نحوه عبادة فقال ما ملخصه : —

قد سمعت مقالتك وان فيمن تركت من أصحابي الف رجل اسود كلهم اشد سواداً مني وافظع منظراً ولو رأيتهم لكنت ارهب لهم منك لي وانا وقد وليت وادبر شبابي ومع ذلك فأني بحمد الله ما اهاب مائة رجل من اعدائي لو استقبلوني جميعاً وكذلك اصحابي وذلك لأن رغبتنا في الجهاد في سبيل الله لا رغبةً في الدنيا وما يباني احدنا اكان له قنطار من ذهب ام كان لايملك الاَّ درهماً لان غاية احدنا من الدنيا اكلة يسد بها جوعه ليله ونهاره وشملة يلتحفها لان نعيم الدنيا ليس بنعيم وانما النعيم والرخاء بالآخرة

فلما سمع المقوقس ذلك قال لاصحابه «هل سمعتم مثل كلام هذا الرجل قط لقد هبت منظره وان قوله لأهيب عندي من منظره » ثم اقبل المقوقس على عبادة بن الصامت فقال له

« ايها الرجل الصالح قد سمعت مقالتك وما ذكرت عنك وعن اصحابك واخبرك انه قادم الينا لقتالكم جيش من الروم لا يحصى عدد رجاله معروفون بالنجدة والشدة لا يباني أحدهم من لقي ومن يقاتل وانا لنعلم انكم لن تقدروا عليهم ولن تطيقوهم لضعفكم وقلتكم وقد اقتم بين اظهرنا شهوراً وانتم في ضيق وشدة من معاشكم وحالكم ونحن نعطف عليكم لقلة ما بايديكم وتطيب انفسنا ان نصالحكم على ان نعطي كل رجل منكم دينارين واميركم مائة دينار ولخليفتكم الف دينار فتنصرفون وتنصرفون الى بلادكم قبل ان يغشاكم مالا طاقة لكم به »

فقال عبادة بن الصامت : — « يا هذا لا تغرن نفسك ولا أصحابك. اما ما تخوفنا به من كثرة عدد الروم وشدتهم وانا لا نقوى عليهم فلعمري ما هذا بالذي تخوفنا به ولا بالذي يثنينا عما نحن فيه . وان كان ما قلتم حقاً فذلك والله ارغب ما يكون لنا في قتالكم لان ذلك اعذر لنا عند ربنا اذا أقدمنا عليه فان قتلنا عن آخرنا كان ذلك ممكن لنا في رضوانه وجنته ونكون منكم حينئذ على احدى الحسنيين اما ان تعظم لنا بذلك غنيمة الدنيا ان ظفرنا بكم ، اوغنيمة الآخرة ان نقدم بناء وانها لأحب الخصلتين الينا بعد الاجتهاد منا وان الله عزَّ وجل قال لنا في كتابه : (كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله والله مع الصابرين) . وما منا رجلٌ الاَّ وهو يدعو ربه صباحاً ومساء ان يُرزق الشهادة وان لا يردَّه الى بلده ولا الى ارضه ولا الى اهله وليس لأحد منا هم فيما خلفه وقد استودع كل واحد منا ربه اهله وولده وما هم الاَّ ما امامنا

« وأما قولك انا في ضيق وشدة من معاشنا وحالنا فنحن في اوسع السعة . ولو كانت الدنيا كلها لنا ما اردنا منها لانفسنا اكثر مما نحن عليه فانظر فيما تريد فليس بيننا وبينك

الاّ خصلة من ثلاث فاختر ايها شئت . ولا تطمع نفسك في الباطل . بذلك امرني الامير وبها امره امير المؤمنين وهو عهد المصطفى صلى الله عليه وسلم من قبل الينا . اما ان اجبتم فالاسلام او الجزية فان ابيتم فليس بيننا وبينكم الاّ المحاكمة بالسيف حتى نموت عن آخرنا او نصيب ما نريد منكم فانظروا لانفسكم »

وبعد حوار طويل بين عبادة بن الصامت وبين المقوقس من ناحية ثم بين هذا الاخير وبين اتباعه من ناحية اخرى قطعت للمفاوضة واستؤنف القتال الذي انتهى بسقوط الحصن كما اسلفنا . وما حان صفر من سنة ٢٠ للهجرة (٢٠ يناير سنة ٦٤١م) حتى اعلن الامير عمرو ابن العاص فتح مصر فكان هذا الاعلان ايذاناً بضياع آخر وأثمن درّة في جبين الامبراطورية البيزنطية . واذا كان امبراطورهم عند ما طرده العرب من سوريا قال وهو ينظر اليها من فوق ظهر سفينته السلام عليك يا سوريا سلاماً لا اجتماع بعده فانا لا ندري ماذا قال قواده عند ما فارقوا الحصن نادمين على ملك افرطوا في التفريط فيه

***

كان اول ما عُني به عمرو لما اصبح امير مصر ان شيد جامعهُ ثم وزع ما حوله من الارض على الجماعات من القبائل المتنوعة التي تألف منها جيشه فاختطت كل قبيلة فيما اختست به خططاً تألف من مجموعها اول عاصمة اسلامية للديار المصرية وأول نواة للعمارة الاسلامية بها

وفي الجهة البحرية من الجامع بنى عمرو داراً له وأخرى قريبها لابنه عبد الله عرفت «بالدار العتبى» تمييزاً لها عن دار ابيه التي عرفت بالدار الكبرى . كذلك بنى الزبير بن العوام داراً له بجوار دار عبد الله . وظل عمرو حاكماً لمصر الى ان عزل عنها سنة ٢٣ هـ (٦٤٤م) ثم عاد اليها سنة ٣٨ هـ (٦٥٨م) وبقي حاكماً عليها الى ان توفي سنة ٤٣ هـ (٦٦٣م)

***

اتسعت هذه المدينة رويداً رويداً وارتقت على عهد الخلفاء من بني امية وصارت مقرّاً للولاة من قبلهم وفيها ابتنى عبد العزيز بن مروان امير مصر من قبل اخيه الخليفة عبد الملك الاموي (دار الامارة) تعلوها قبة مذهبة شأن الامويين في تفخيم بنائهم حتى تبزّ البنايات البيزنطية التي خلفها الروم وراءهم في الاقطار التي انتزعها العرب منهم

ولعلّ دار الامارة هذه كانت اول بناية اسلامية كبيرة في مصر وصل الينا نبأ زخرفها . وفي آخر لحظة من حياة الدولة الاموية قدم مصر مروان آخر خلفائها فارّاً امام جيوش العباسيين التي كانت تتعقبه حتى وصلت مصر فنزل القائدان صالح بن علي وأبو عون بعسكرهما في الشمال

الشرقي من الفسطاط وهناك شيدوا المساكن والقصور وتكوّن من مجموعها ضاحية جديدة للفسطاط سميت (العسكر) وفي وسطها بنى صالح بن علي « دار امارة » جديدة صارت مقرًّا للامراء بدلاً من دار عبد العزيز بالفسطاط . ثم بنى الفضل بن صالح جامعاً جديداً بجوارها سمي جامع «العسكر» . وبذلك انتقل مقر الحكم من فسطاط عمرو الى «العسكر» . ولما قدم احمد بن طولون والياً على مصر نزل بدار الامارة والعسكر. ولكن لما ضاقت بعسكره وحاشيته بنى له قصراً خاصًّا في الميدان الذي تحت قلعة الجبل الآن . وانشأ ميداناً بين هذا القصر وبين الجبل القائم عليه حيّ طولون الآن . وحول هذا الميدان بنى قواده وعساكره اخطاطاً كاملة لكل قائد بعساكره خطة خاصة ومن مجموع هذه الاخطاط تكوّنت مدينة ثالثة شمالي العسكر سميت «بالقطائع» وان تكن في الواقع ضاحية ثانية او امتداداً لمدينة الفسطاط. والى هذه المدينة الجديدة انتقل مركز الحكم والامارة

وقد تمّ بنو طولون بالاستقلال بمصر عن دولة العباسيين ببغداد الاّ ان دولتهم دالت سنة ٢٩٢ هـ (٩٠٤ م) فأمر الخليفة المعتضد بالله العباسي عماله الذين جاءوا بعد الطولونيين بهدم القطائع وقصور بني طولون كراهةً فيهم وانتقاماً منهم . فأكتفى هؤلاء العمال بهدم القصور وتركوا القطائع والجامع على حالتهما فبقيت عامرة زاهرة اكثر من قرن بعد زوال حكم مؤسسيها

ولما زال حكم الاخشيديين وامتلك الفاطميون مصر انشأوا القاهرة شمالي الفسطاط . واتخذها خلفاؤهم عاصمة جديدة لملكهم ومقرًّا لهم وحاشيتهم دون سواهم. اما طوائف العسكر والتجار والعمال فكانوا يسكنون الفسطاط . ثم اخذ الناس يفدون الى القاهرة آناً بعد آن حتى كثفت الفسطاط . وفي الواقع ان قيام القاهرة افقد هذه العاصمة القديمة وقضى عليها تدريجاً فكانت القاهرة كلما تقدمت خطوة في سبيل الاتساع والعمران تقهقرت الفسطاط بجانبها خطوة الى الوراء في طريق التدهور والانحطاط حتى قال ابن سعيد (ومنذ بنيت القاهرة ضعفت مدينة الفسطاط وفرط في الاختباط بها بعض الافراط)

ومما عجّل في خراب الفسطاط امران (اولهما) الشدة العظمى التي كانت في خلافة المستنصر ابتداء من سنة ٤٤٦ هـ (١٠٥٤م) حيث ارتفعت اسعار الحاجيات واشتدّ الغلاء وكثر الوباء بالقاهرة والفسطاط والاقاليم مما سبب الفتنة الكبيرة التي خرب بسببها القطر بأكمله ومهاجرة جانب عظيم من سكان الفسطاط التي تخلى عنها اصحابها . فأخذوا كل ما وصلت اليه ايديهم من مواد البناء ونقلوه الى القاهرة حتى خرب معظم الفسطاط والعسكر والقطائع

والثاني — حريقها في وزارة شاور بن مجير السعدي لسبب التنافس على الوزارة بينه وبين ضرغام ثم تداخل امور دنيا لوزيرين منتصراً لشاور سنة ٥٦٢ هـ (١١٦٦ م) واعتزاماً بعد ذلك

بسنتين غزو الفسطاط فصار اليها حتى بلغ بركة الحبش بعد ما استولى على بلبيس

وفي ذلك الوقت كان اكثر العسكر والقطائع خالياً من السكان بخلاف الفسطاط فانها وان لم تكن على عهدها الاول من القوة الا ان سكانها كانوا غير قليلين . ولم يسع شاور الدفاع عنها امر باخلائها وحرقها . وهنا ندع المقريزي يتكلم فيقول : —

(فنادى شاور بمصر ألاَّ يقيم بها احد وازعج الناس في النقل منها فتركوا امواطم ونجوا بانفسهم واولادهم وقد ماج الناس واضطربوا كأنهم خرجوا من قبورهم الى المحشر لا يعبأ والد بولده . ولا يلتفت اخ الى اخيه . وبلغ كراء الدابة من مصر الى القاهرة بضعة عشر ديناراً . وكراء الجمل الى ثلاثين ديناراً . ونزلوا بالقاهرة في المساجد والحمامات والازقة وعلى الطرقات فصاروا مطروحين بعيالهم واولادهم وقد سلموا سائر امراطم . (الى ان قال) وبعث شاور الى مصر بعشرين الف قارورة نفط وعشرة آلاف مشعل نار فرق ذلك فيها فارتفع لهب النار ودخان الحريق الى السماء فصار منظراً مهولاً فاستمرت النار تأتي على مساكن مصر من اليوم التاسع والعشرين من صفر لتمام اربعة وخمسين يوماً . ومن ثم تحولت مصر الفسطاط الى تلك الاطلال المعروفة الآن بكيمان مصر

وبعد ان اوقد شاور النار في الفسطاط التجأ الى القاهرة . ولم يتمكن أموري من الاستيلاء على مصر لان صلاح الدين كان قد ظهر في عالم الوجود واضحى سيد مصر واستولى على الشام

***

وفي القرن التاسع الهجري لخص التلقشندي المحن التي نزلت بالفسطاط (الى ان قال) : —

(وبعد حريق شاور تزايد الخراب وكثر الخلل ولم يزل الأمر على ذلك في تقهقر أمره (الفسطاط) الى ان كانت دولة الظاهر بيبرس أحد ملوك الترك بالديار المصرية فصرف الناس همتهم الى هدم ما خلا من اخطاطه والبناء بانقاضه بساحل النيل بالفسطاط والقاهرة وتزايد الهدم فيه (الفسطاط) واستمر الى الآن حتى لم يبق من عماراته الا ما بساحل النيل وما جاوره الى مايلي الجامع العتيق (جامع عمرو) وما دانى ذلك ودثرت اكثر الخطط القديمة وعفى رسمها واضمحل ما بقي منها وتغيرت معالمه

واليوم ونحن في منتصف القرن الرابع عشر الهجري . لم يبق من الفسطاط الأصلية إلا كيانها القائم فيما بين النيل والمقطم وما نسميه اليوم مصر القديمة لا يمكن اعتباره من بقاياها فان المنطقة المحصورة بين خط سكة حديد حلوان شرقاً وضفة النيل الشرقية غرباً لم تظهر الى عالم الوجود الا في اواخر القرن الرابع الهجري بعد ما تحول النيل من مجراه الأصلي شرقاً الى مجراه الحالي غرباً . وسبحان من لا يتحول ! !